Al-Dirasat Al-Islamiyyah (Islamabad) 34:2 (1999)

اللغة العربية وآدابها
في شبه القارة الهندية الباكستانية عبر القرون

تأليف: سيد رضوان علي الندوي

عرض: شعبان محمد مرسي

هذا الكتاب أصدرته جامعة كراتشي في جمهورية باكستان الإسلامية، وهو من تأليف أستاذ فاضل هو الدكتور سيد رضوان علي. والكتاب مجلد واحد، عدد صفحاته ٥٢٦ من القطع المتوسط. وقد قسّمه المؤلف إلى مقدمة وخمسة فصول.

وفي المقدمة تناول الباحث عدة قضايا منها قضية ظهور تاريخ الأدب كعلم من العلوم الإنسانية المهمّة في العصر الحديث، وبيّن أن العرب قديما كانت لهم تآليف هي من صميم تاريخ الأدب ، مثل كتاب محمد بن سلام الجمحي بعنوان "**طبقات فحول الشعراء**"، وكتاب ياقوت الحموي"**معجم الأدباء**". ومنها قضية التأليف في تاريخ الأدب العربي في شبه القارة الهندية الباكستانية، وتطوره حتى أيامنا هذه.

© Dr Muhammad Hamidullah Library, IIU, Islamabad. http://iri.iiu.edu.pk/

وفي الفصل الأول من الكتاب تتبع المؤلف المسالك التي سلكتها اللغة العربية إلى شبه القارة الهندية الباكستانية، وهي في رأيه ثلاثة مسالك:

١- سواحل الهند الغربية وكجرات

٢- إقليم السند

٣- إقليم الحدود الشمالية والبنجاب

وقد فصّل المؤلف القول في هذه المسالك تفصيلاً وافياً ناهجاً النهج التاريخي في تتبعها منذ العصر الجاهلي والفتح الإسلامي لشبه القارة واستقرار العرب فيها حتى قيام دول الطوائف بتلك المنطقة.

كذلك تحدث المؤلف في هذا الفصل عن أثر القرآن الكريم في انتشار اللغة العربية في بلاد شبه القارة، وما كان من أثر الأنظمة الدراسية وعناية الشيوخ المسلمين بهذه اللغة في تلك البلاد، ثم أورد المصنف نبذة عن التأليف باللغة العربية في شبه القارة.

وفي الفصل الثاني تحدث المؤلف عن عصرين هما العصر العربي والعصر الغزنوي، من سنة ٩٣هـ حتى سنة ٦٠٢هـ، وهذه حقبة طويلة وكان الأجدر أن يخصّص لكل عصر فصلا مستقلا، غير أن المادة العلمية المتصلة بالعصر العربي لم تساعده على ذلك لقلتها فيما يبدو، وقد يكون السبب في هذا هو الرغبة في التيسير كما يقول المؤلف: "ومع أن هاتين الفترتين تختلفان اختلافاً جذرياً من الناحية

السياسية والاجتماعية والثقافية، فإننا ضممناهما في عصر واحد تسهيلا للأمر، وجمعا لشتات الموضوع" ص٧٣.

وداخل الإطار التاريخيّ الذي اتبعه المؤلف ذكر الشعراء والأدباء مرتبين، ويلاحظ أن حديث الكاتب عن كل شاعر أو أديب مختلف الطول على حسب غزارة المادة العلمية أو ندرتها، فقد أطال المؤلف مثلا في عرضه لحياة أبي عطاء السندي، ودقّق في الروايات المروية حول عيوبه النطقية، ودرس ما وصل إلينا من شعره، واستغرق كل هذا من الصفحة رقم ٧٩ إلى الصفحة رقم ١١١، أي اثنتين وثلاثين صفحة، على حين أن الشاعر سندي بن صدقة لم ينل أكثر من خمسة أسطر، والشاعر منصور الهندي كان حظه ثلاثة أسطر فقط. ومجموع الشعراء في هذا الفصل ستة شعراء، فهل لم يكن في العصرين: العربي والغزنوي سوى هؤلاء الستة؟ بالتأكيد كان هناك شعراء وأدباء كثيرون خلال هذين العصرين، فلا يعقل أبدا ألاّ يكون إلا هؤلاء الشعراء الستة في خمسة قرون. لقد ضاعت دواوين عربية كثيرة، وهلكت كتب جمة، نتيجة الفتن والحروب المستمرة إبان تلك الحقبة التاريخية، وما زالت هناك مخطوطات يجب التنقيب عنها في شبه القارة الهندية الباكستانية، لعلها تكشف شيئاً من الأخبار الأولى، أو تضم عددا من أشعار الأجداد السالفين، وهذه مهمة المؤلف وزملائه وتلاميذهم من أبناء المنطقة.

وفي الفصل الثالث تحدث المؤلف عن عصر سلطنة دهلي، أي من عام ٦٠٢هـ حتى عام ٩٣٣هـ، وحدد لهذا العصر عدة خصائص مميزة:

١- إنشاء عاصمة إسلامية جديدة هي دهلي، أقام فيها قطب الدين أيبك، ومنها توسع في ربوع الهند.

٢- هجرة العلماء والأدباء والشعراء من مواطنهم المختلفة إليها طمعا في عطايا سلاطينها، ورغبة في نشر العلم والفن بها.

٣- هجوم التتار على البلاد الإسلامية في ما وراء النهر وإيران فرحل كثير من أهل العلم والأدب هربا من الهلاك إلى دهلي، وقد رحّب بهم أهل البلاد وحكامها، فانتشر العلم، وازدهر الأدب، وارتقت اللغة العربية واللغة الفارسية، وكانت اللغة العربية تستخدم في الدراسات الإسلامية والعربية، واللغة الفارسية تستعمل في الإدارة وشئون الدولة الرسمية.

٤- في القرن الثامن الهجري قامت دويلات مختلفة في الهند، تعرف في التاريخ بدول الطوائف، وكان لكل منها عاصمة، وقد حاولت كل عاصمة من هذه العواصم أن تنافس الأخرى في رعاية العلوم والآداب والفنون، فاستجلب حكامها الشعراء، واستدعوا العلماء، وبذلوا ما في وسعهم، حتى كان بلاط كل ملك من ملوك الطوائف يزاحم في جلالته بلاط دهلي، وبذلك ازدهر العلم والفن، وأثمر كثيراً، على الرغم من الضعف السياسي والعسكري، ويشبه هذا ما حدث في

الأندلس إبان حكم ملوك الطوائف بعد سقوط الخلافة الأموية هناك.

٥- بناء المدارس كان ظاهرة مميّزة لهذا العصر، فقد عني المسلمون آنئذ بإنشاء المعاهد العلمية، والمدارس، وزوّدوها بالكتب والمدرسين وأجروْا للأساتذة والتلاميذ الجرايات، وقرروا لهم المرتبات والأدوات اللازمة للعلم والتعلم، ووقفوا الأوقاف للإنفاق الدائم على هذه المدارس، ومن هذه المدارس المدرسة المعزية، والمدرسة الناصرية والمدرسة الفيروز شاهية التي بناها السلطان فيروز شاه تغلق سنة ٧٥٥هـ، كانت هذه المدرسة مثل الجامعات المعاصرة، فيها فصول للدرس وحجرات للنوم، لنوم الأساتذة والطلاب، وفيها مكتبة، وكانت تستقبل أساتذة زائرين، وجعل السلطان موقعها بجوار بحيرة صناعية رائعة، وقد وضع لهذه المدرسة منهج منظم، وقرئت فيها الكتب القيمة.

٦- نبغ في هذا العصر علماء وشعراء كثيرون، منهم رضي الدين حسن بن محمد الصغاني اللاهوري وعبدالمقتدر الكندي الدهلوي والأمير خسرو وغيرهم كثير.

٧- امتد العمران في هذه الحقبة، وازدهر فن العمارة والزخرفة.

وبعد أن حدد المؤلف خصائص هذا العصر ذكر أشهر العلماء والأدباء فيه، وعددهم ستة عشر، أولهم الحسن بن محمد الصغاني (٥٧٧هـ - ٦٥٠هـ)، وآخرهم الشيخ زين الدين بن علي

المعبري (٨٠٢هـ - ٩٢٨هـ)، وتاريخ وفاة هـذا الأخير تحتـاج إلـى تحقيق، هل عاش فعلا مئة وستة وعشرين عاما؟ والتراجم التي كتبهـا المؤلف لهؤلاء العلماء والأدباء وافية بالغرض المنشود، وإن كنا نـود التوسع أكثر في ذكر المدارس التي تخرج فيها هؤلاء، والتي درّسـوا فيها، وأشهر التلاميذ الذين تلقوا العلم على أيديهـم، وخاصـة النوابـغ منهم.

وفي الفصل الرابع تحدث المؤلف عن العصـر المغولـي الأول في شبه القارة الهندية الباكستانية (٩٣٣هـ - ١١١٩هـ)، وهو العصر الذي ابتدأ بانتهاء سلطنة دهلي وزوال مملكتها، وكان مؤسس الدولة المغلية، أو المغولية كما تكتب في الكتب العربيـة، هـو ظهـير الديـن بابر، كان هذا الرجل قائدا عسـكريا عظيمـا، وشـاعرا بليغـا، وكاتبـا مبدعا، وصل إلينا من كتاباته كتاب بعنوان "**توزك بابري**"، وهو مـن فن المذكرات أو السـيرة الذاتيـة بشـيء مـن التوسـع فـي المصطلـح الأدبي، يعد من روائع الآداب العالمية، وإن أكثر العـرب يجهـل هـذا الكتاب، وقد ترجم هـذا الكتـاب إلـى كثير مـن لغـات العـالم، ولـم يبلغني أنه ترجم إلى اللغة العربية.

ومن سمات هذا العصر المغولي في الهند ازدهار فن العمارة، واتساع الدولة الإسلامية، حتى أطلق عليها المؤرخون الأوربيون اسم الإمبراطورية المغولية، والميل إلى العلوم العقلية والطبيعيـة. ففـي هـذا العصر بني ضريح تاج محل في أكرا، وهو من عجائب الدنيـا، يؤمـه السائحون من كل مكان، تقديرا لعظمة الفن الإسلامي المركوز فيـه.

وفي هذا العهد ألفت الفتاوى العالمكيرية، أو الفتاوى الهندية كما هو المشهور عند العرب. وقد شهد هذا العصر رحيل كثير من العلماء العرب إلى الهند، والاستقرار فيها.

وقد ذكر المؤلف العلماء والشعراء والأدباء اللامعين في هذه الدولة، وعددهم عشرون، وتكلم عن حياتهم ومؤلفاتهم، وأورد شواهد من أشعارهم تدل على مكانتهم في عالم الشعر.

وفي الفصل الخامس تحدث المؤلف عن العصر المغولي الثاني (١١١٩هـ ـ ١٣١٨هـ)، ووضح خصائصه، ومن أهمها: ضعف السلاطين المغول بعد موت السلطان محيي الدين عالمكير، واختلافهم واقتتالهم، وتمرّد الهندوس وهجومهم على المدن الإسلامية، ومحاولتهم الاستيلاء على الحكم لولا نجدة إسلامية أفغانية قادها أحمد شاه الأبدالي، حطمت قوة الهندوس، وفي هذا العهد تدخل الإنجليز في شئون الإمبراطورية المغولية بعد أن أسّسوا شركة الهند الشرقية، وكان تدخلهم تحت دعوى حماية المصالح البريطانية، وكان تدخلهم مصدر فساد كبير، وظلوا يدسّون أنفسهم في الأمور الداخلية، وسمح لهم بذلك بعض السلاطين الضعاف، واستعانوا بهم، فضاعت هيبتهم، وهانوا على عدوهم، وانتهى الحال باستيلاء الإنجليز على شبه القارة الهندية الباكستانية، واقتضى الأمر كفاحاً طويلاً حتى حصل أهل البلاد على الاستقلال.

ويمتاز هذا العصر بنبوغ عدد من العلماء الكبار، والشعراء المتميّزين، والأدباء الناثرين، والتوسّع في إنشاء المدارس الدينية، كل

هـذا كـان ردّ فعـل علـى مـا يعملـه الإنجلـيز، إذ أرادوا نشـر اللغـة الإنجليزية في الديار الهنديـة، فأنشـؤوا المـدارس الحديثـة، وأمدوهـا بـالكتب والمدرسـين، وابتغـوا القضـاء علـى اللغـة العربيـة وآدابهـا، وقصدوا التنصير بين الأهالي، مـن أجـل ذلـك هـب المخلصـون مـن الشيوخ يدعون إلى الإسلام، ويُحَبِّبُون الناس في لغة القـرآن الكريـم، على الرغم من أنهم لم تأتهم مساعدات من الخارج آنئذ.

وكثرت تفاسير القرآن العظيم في هذا العهد، ونـال الحديـث الشريف عناية كبرى حتى صار أعظم المحدثين في تلك الحقبـة مـن أبناء شبه القارة الهندية، أعظم المحدثين فـي العـالم الإسـلامي كلـه، لقد عنوا بالحديث متنا وإسنادًا وشرحا، وحظـي مذهـب الإمـام أبـي حنيفة بالعناية، فألفت شروح كثيرة على الفروع الفقهية.

ومن أشهر العلماء في هذه الحقبة محمد أعلى التهانوي الذي صنّـف كتـاب "**كشّـاف اصطلاحـات الفنـون**"، والعلامـة ولـي اللـه الدهلوي صاحب كتاب "**حجـة اللـه البالغـة**"، والقـاضي عبـد النبـي الأحمـد نكـري الـذي ألّـف كتـاب "**دسـتور العلمـاء**" فـي التعريـف بالعلوم والفنون وما وضع فيها.

وقد ترجم المؤلف في هذا الفصل لعلماء كثيرين ممن نبغـوا فـي هذا العصر، أولهم غلام علي نقشبندي اللكهنوي (١٠٥١هـ-١١٢٦هـ)، وآخرهم محمد مهدي المصطفى آبادي (٠٠٠ ـ ١٣١٧هـ)، وعددهـم ستون عالما وأديبا وشاعرا.

وختم المصنف كتابه بخاتمة ذكر فيها أهم ما توصل إليه من نتائج، وعقب عليها بملاحق ضمت نماذج من شعر شعراء شبه القارة، ونماذج من النثر الذي أبدعه كُتّاب هذه المنطقة في ذلك الزمان ، وكل هذه النماذج مفيدة، ولو أن المصنف ضبط تلك النصوص لكانت الفائدة أكثر.

كذلك وضع المؤلف عدة فهارس مفيدة في آخر الكتاب، وأهمها فهرس الأعلام المترجم لهم في الكتاب، وقد رتّبهم هجائيا.

واستعمل الكاتب أسلوبا عربيا صحيحا فصيحا، والأخطاء الواقعة فيه قليلة، نرجو أن يصححها في طبعة لاحقة إن شاء الله، وأكتفي هنا بذكر بعض الأمثلة من هذه الأخطاء:

	الخطأ	الصفحة	الصواب
١	ويحوي تراجم أكثر من أربعة آلاف وخمس ونيف شخص	١٢	ويحوي تراجم أكثر من أربعة آلاف وخمسمئة ونيف من الأشخاص
٢	والجزء الأول يشمل على ذكرها علماء ورجال	١٢	يشمل ذكر علماء ورجال
٣	وهو في الحقيقة كانت رسالة الدكتوراه	١٣	وهو في الحقيقة كان رسالة الدكتوراه
٤	في تعريفات والفنون	١٨	في التعريفات والفنون
٥	ومعجم المطبوعات العربية والمصرية	٢١	ومعجم المطبوعات العربية والمعربة
٦	هذا ما تمكنا من الإنجاز في ظروفنا	٢٢	هذا ما تمكنا من إنجازه في ظروفنا
٧	كان في جيشه خمسين ألف فارس	٤٠	كان في جيشه خمسون ألف فارس
٨	كانوا اثنى عشر ألف	٤٠	كانوا اثنى عشر ألفًا
٩	ذكر بعض علماء الذين	٤٤	ذكر بعض العلماء الذين
١٠	وأما مقامات الحريري فإنه يهدم ما خلقهما من تذوق الأدب الكتابان السابقان	٥٢	وأما مقامات الحريري فإنها تهدم ما خلق الكتابان السابقان من تذوق الأدب
١١	ذكر اثني عشر حاشية	٥٧	ذكر اثنتي عشرة حاشية
١٢	وبلغ عددها التي ذكرها	٥٩	وبلغ عدد الحواشي التي ذكرها
١٣	فهرس المترجمين لهم	٥٠٣	فهرس المترجم لهم

هـذه نمـاذج فقـط مـن الأخطـاء اللغويـة، ويسـتطيع المؤلـف تصحيح الأخطاء في الطبعة القادمة ولاتقدح هذه الأخطاء فـي صحـة عباراته؛ فكلنا نخطئ، وكل ابن آدم خطـاء ، ولايخلـو كتـاب كتبـه إنسان من هنات، وحسب المرء فضلا أن تعدّ معايبه.

بقى خطـأ نشـأ عـن التصحيـف فـي قـول الشـاعر أبـي ضلـع السندي ص: ١١٦

يانفس صبرا لا تملكي بأسا

قد فارق الناس قبلك الناسا

صبرا جميلا فلست أول من

أورثه الظاعنـون وسـواسـا

والتصحيف واقع في البيت الأول، والصواب:

يانفس صبرا لا تهلكي ياسا

قد فارق الناس قبلك الناسا

أي لا تموتي من اليأس والقنوط والجزع، وبهذا يفهم المعنـى الذي أراده الشاعر.

وأيضا في قول الشاعر هارون بن موسى الملتاني ص ١٢١:

فناهشته حتى لصقت بصدره ∴ فلما هوى لا زقـت أي لـزام

والمناسب أن يكون البيت كما يأتي:

فناهشته حتى لصقت بصدره ∴ فلما هوى لازمت أي لزام

بقيت كلمة أحب أن أعلق بها على قول المؤلف : "وآفة الشروح والحواشي هذه قد وصلت إلى الهند عن طريق علماء إيران ... " ص ٥٥.

يا أخي الكريم إن الشروح والحواشي ليست "آفة" ، وإنما هي نمط من التأليف، ولكل عصر طريقته في البحث العلمي، فلنعدّ هذا سمة من سمات ذلك العصر، ومن المؤكد أن بين هذه الحواشي حواشي جيدة كثيرة الفائدة مثل حاشية الشيخ عبدالحكيم السيالكوتيّ في البلاغة، فإنها قيمة.

أخيراً أقول: إن "كتاب اللغة العربية وآدابها في شبه القارة الهندية الباكستانية" كتاب مفيد غاية الفائدة لما احتوى من معلومات غزيرة، ولترتيبه الجيد، وأسلوبه العلمي الدقيق، ولما وضح من غوامض هذه البيئة على مرّ العصور، ونحن ننتظر الجزء الثاني الذي يكمل دراسة الأدب العربي في هذه المنطقة من سنة ١٣١٩هـ حتى سنة ١٤١٩هـ أي إلى يومنا هذا ، فالله ندعو أن يوفق المؤلف دائما ويوفقنا ويوفق الدكتور محمد الغزالي رئيس تحرير مجلة "**الدراسات الإسلامية**" التي يصدرها مجمع البحوث الإسلامية بالجامعة الإسلامية العالمية ـ بإسلام آباد، فإن الدكتور محمد تكرم وأعارني هذا الكتاب القيم، دون أن أطلب، ولولاه ما عرفت الكتاب، فجزاه الله خيراً.

☆☆☆